رابعاً: تدهور الحياة العامة عند مسلمي الأندلس:

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان من إفرازات الضعف المعنوي لمسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف تدهور الحياة العامة عند أولئك القوم حيث شاع الفقر، وانتشر الظلم، فضلاً عن انعدام الأمن وخوف الناس على أعراضهم وأموالهم بسبب تلك الفوضى السياسية التي ضربت أطنابها في كل تلك البلاد، وقد أحسّ مفكرو الأندلس وعقلاؤها بتلك الظاهرة؛ حيث وصفوها بعبارة دقيقة تنم عن شدة معاناتهم منها، وحرصهم على اجتيازها، والخلاص من آثارها، وكان ممن تحدث عنها ابن حزم؛ حيث ذكر أن كثيراً من الظواهر السياسية والاجتماعية التي حلت بمسلمي الأندلسي في ذلك العصر هي من الظواهر الغريبة والفريدة التي يندر حدوثها في تاريخ البشرية[١]، وقد وافقه على ذلك تليمذه الحميدي[٢]، أما ابن حيان فقد ذكر أن ذلك العصر قد سفَّه أخلاق الناس، كما خبَّث الأعراق، واحتوى على الناس الجهل، ودنو الهمم[٣]. كما سمَّى ذلك العصر بـ(عصر الفتنة المبيرة)[٤]، وعلى الرغم من قساوة هذه الأحكام التي أطلقها ابن حيان على عصر ملوك الطوائف، فقد ذكر ابن بسام أن الناس بقرطبة أعجبوا بهذا الطرح حيث ذكر أنه «كان عندهم - يعني ابن حيان - بقرطبة خاتمة المتكلمين... على ما تراه: ركب من إثم، واحتقب من ظلم، وتناول من عرض، وأطبق من سماء على أرض، عجباً بافتنانه، وتعجباً من بيانه»[٥].

---

(١) ابن حزم، نقط العروس، ص ٨٣-٨٤.

(٢) جذوة المقتبس، ص ٢٨.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٥.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨. (نقلاً عن ابن حيان).

(٥) الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٥٧٤.

أما المقري فقد ذكر أن الحياة العامة في ذلك العصر «قد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتىٰ لم يمكن دفعه»(١)، ويعتبر ما تركه لنا ابن بسام من وصف للحياة العامة، من أدق وأشمل ما خلفه لنا المؤرخون حيث قال: «قال أبو الحسن ابن بسام: ولما أدارت تلك الفتنة رحاها، علىٰ حاضرة قرطبة وما والاها ـ إذ كانت علىٰ ما قدمنا ذكره منتهىٰ الغاية، ومركز الراية ـ فقلصت أذيالها، وانتسفت جبالها، واشتفت الماء من عودها، وألوت بمعظم طارفها وتليدها، شذ قوم من أهلها علىٰ حال لو رآها ابن جبير لقال بالتقية، وبين يدي قتال لو أحاط ببني ذبيان ليئسوا من البقية، بأذماء أنفس قد نازعهم الموت أرماقها، وبقايا أحوال قد هتكت النوائب أستارها وأوراقها، فأصبحوا طرائد سيوف، وجلاء حتوف، قد خلعهم لين العيش علىٰ خشنه، وأسلمتهم غفلات الزمان إلىٰ محنه، يلوذون بآفاق هذه الجزيرة المنكوبة لواذ الماء بأقطار الزجاجة المصبوبة، فكانوا كما وصف ذلك الملك الضليل(٢) حيث يقول:

فريقان منهم جازعٌ بطن نخلة ... وآخر منهم قاطع نجد كبكبِ»(٣)

كما ذكر ابن عذارىٰ أنه علىٰ الرغم من شدة معاناة الناس بسبب ما حل بهم من مجاعات وأزمات اقتصادية «فشرب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور، ولا ترىٰ إلا مجاهراً بمعصية»(٤).

هكذا كان واقع الحياة بشكل عام في المجتمع الإسلامي بالأندلس في عصر ملوك الطوائف، فقد تلاشت كثيرمن القيم الحضارية التي كانت تسيطر علىٰ ذلك

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص ٦٠.
(٢) المقصود به امرئ القيس.
(٣) الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩ـ١٠.
(٤) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٦.

المجتمع، حيث انعدم الوازع الديني، كما أن الوازع السلطاني أصبح تأثيره ضعيفاً بل يكاد يكون منعدماً عند كثير من الناس، وهذا بلا شك مما جعلهم يعيشون في فوضىٰ عمت شؤون حياتهم جميعها؛ إذ أمسىٰ الناس في مثل عصر الجاهلية كما يقول ابن عذارىٰ[١]، وقد بدت آثار هذه الفوضىٰ واضحة في كثير من جوانب حياة الناس، ولعل من أهمها:

* **ضعف الحياة الاقتصادية.**

* **تردي الحالة الأمنية.**

* **انتشار القلق النفسي بين الناس.**

أما الحياة الاقتصادية: فقد تأثرت بتلك الظروف السياسية والحربية تأثراً كبيراً؛ إذ إنه لا يختلف اثنان في أن الاستقرار واستتباب الأمن يُمكّن الناس من مزاولة تجاراتهم والعمل في مصانعهم ومزارعهم، وغيرها من المجالات الاقتصادية دونما خوف أو قلق، لكن هذا الأمر ينعدم في حالات الفزع والتقلبات السياسية والحروب المتواصلة التي تشبه معارك قطاع الطرق[٢]، وقد أدىٰ ذلك الوضع في عصر ملوك الطوائف إلىٰ عدم الاستقرار الاقتصادي، وإلىٰ قلق عام في الأسواق، وركود في الحياة التجارية والصناعية[٣]؛ لهذا يرىٰ أحد الباحثين أن الحالة الاقتصادية العامة لمسلمي الأندلس في ذلك العصر كانت بالغة السوء[٤]، فقد كانت الأسواق والدكاكين تبقىٰ مدة خالية من الناس بعد المعارك الحربية التي تقع بين ملوك الطوائف أنفسهم، حيث استمر القتل بالناس كما وقع

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٢) عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٢٨.

(٣) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٩١.

(٤) عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٢٨.

في سنة ٤٤٢ هـ، بعد معركة(يابرة) التي وقعت بين ابن عباد وابن الأفطس، فقد قتل ابن عباد ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل، فبقيت بطليوس خالية الدكاكين والأسواق، وهذا يدل على فشوِّ المصيبة كما يقول ابن حيان(١).

ولعل من الأدلة القوية على تلك النكسة الاقتصادية أنه خلال عصر ملوك الطوائف كله لم يوجد عملة فضية تُسمَّى الدراهم؛ إذ كانت العملة المتداولة إما من النحاس أو من الفضة الرديئة ذات الوزن المتغير(٢)، ومما يدل على إفلاس الناس ما ذكره صاعد من أن أهل قرطبة «اضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب، وسائر المتاع، فبيع ذلك بأوكس ثمن، وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب في أقطار الأندلس»(٣).

وقد كان لهذا الضعف في الحياة الاقتصادية أسباب قوية؛ من أهمها تسلط النصارى في حرب المسلمين، تلك الحروب التي استمرت عشرات السنين أكلت خلالها الأخضر واليابس، هذا إلى جانب تسلط النصارى على المسلمين في أعقاب النكسات الحربية، بجمع المال واستنزاف ما عندهم بعد تهديدهم إن لم يعطوا عن يد وهم صاغرون، ولعل موقف ابن ردمير ملك أراجون من أهل بلنسية أوضح دليل على ذلك؛ فقد جمع أهل المدينة ثم قال لهم: «انظروا لي في سبعمائة ألف مثقال وإلا هلكتم، وأحللت السيوف عليكم. ثم خرج وبقي المسلمون في القصر، وأغلق عليهم الباب، فصاروا في سجن، والروم تحفهم بالأسلحة، فرأوا الموت، ووقع البهت، وخرست الألسنة، ثم رجع اليهودي وزيره إليهم وقال لهم: لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي ألف مثقال،

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٩٥.
(٣) طبقات الأمم، ص ٨٩-٩٠.

فبادروا بتوزيعها، وافدوا أنفسكم منه. فتوزع العدد على الأحوال، واشتد ثقاف الأغنياء»[١].

وهكذا أفضى ضعف المسلمين المعنوي إلى إفراز العديد من الآثار والنتائج، وما الضعف الاقتصادي إلا أثراً واضحاً ونتيجة ملموسة لضعف المسلمين المعنوي، وقد استبان لنا من خلال النص السابق كيف تجاسر النصارى على المسلمين، فأرغموهم على دفع ما يريدون من مال، ومما لا شك فيه أن هذا التجاسر كان له أثره الواضح في هدم اقتصاد المسلمين، وإضعاف إمكاناتهم المادية.

ولم تكن جرأة النصارى على أموال المسلمين هي السبب الوحيد في إضعاف الحياة الاقتصادية، بل وجد معها عدد من العوامل الداخلية، ومن بينها تسلط كثير من الحكام والوزراء على أموال الناس، واستيلاؤهم عليها، وبشتى الطرق والوسائل كما فعل مبارك ومظفر العامريان؛ حيث فرضا الضرائب والإتاوات الكثيرة على رعاياهما؛ إذ كانا يستخرجانها بأشد العنف ومن كل صنف؛ حتى تساقطت الرعية، ورحلت عن الأندلس إلى بلاد أخرى[٢]. وقد ترك لنا ابن حيان وصفاً دقيقاً لهذا الإجراء، حينما قال: كانا «. . . يحثان بسوق الرعية المضطهدة بسلطانهما، ولا يعبئان بما آذاها من كلفهما، يقلدانها شرار العمال، ويستزيدان عليها في الوظائف الثقال، مع الأيام والليالي، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش، وفرّ كثير منهم عن قراهم»[٣]، ويضيف ابن حيان أن هذا السلوك لم يكن خاصاً بالعامريين بل إنه

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٤١.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٩٩-١٠٦-١٠٧، ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٥-١٦.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢. (نقلاً عن ابن حيان).

على هذا السبيل «سلك أكثر الثوار المنتزين على أكنافها، الثائرين بأطرافها، بعد افتراق الجماعة بقرطبة آخر دولة بني عامر»(١).

ويذكر ابن عذارى أن سبب موت مبارك العامري هو دعاء أهل بلنسية عليه بسبب تشططه في جمع الأموال منهم؛ ذلك أنه لما خرج يوماً للنزهة اعترضه أهل بلنسية وهم يستغيثونه في أن يرفق بهم في مال كان قد افترضه عليهم، فقال لهم يومئذ: «اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة». ثم ركب إثر ذلك فلما أتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه فرمى به أسفلها، واعترضته خشبة نائية من القنطرة وفُتق بطنه، ففاضت نفسه لوقته، وأمن أهل البلد من مقته، وكفاهم الله أمره، كما يقول ابن عذارى(٢).

ويضاف إلى ما سبق: ما فعله المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ) حاكم الثغر الأعلى حيث بالغ في فرض الإتاوات المالية والضرائب على الرعية، لكي يدفعها للنصارى، فلما أثقلت تلك الضرائب كواهل الرعية، وعجزوا عن سدادها لجؤوا إلى أحد العابدين المعروفين بالصلاح، فأخبروه بما فرضه عليهم ابن هود، وأنهم أصبحوا عاجزين عن سداده فقال لهم: «معاذ الله! هذا لا يكون وأنا حي في الدنيا أبداً»، ثم ركب مع بعض الناس، وذهبوا إلى المقتدر بسرقسطة، فلما قابلوه وعظه، وبين له ما جاء في الشرع حول هذا الموضوع، فاغتاظ المقتدر لما سمع من ذلك الرجل وقال: «احتقرنا هذا الرجل حتى خاطبنا بمثل هذه المخاطبة، فإن تركناه ولم نعاقبه تجاسر علينا غيره»، فأمر به فقُتل(٣)،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٢.
(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٣.
(٣) وقد ذكر ابن عذارى أن ابن هود عاقبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عمله السيئ ضد ذلك الرجل=

بينما استمر ابن هود في فرض الضرائب على الرعية، وتقديمها للنصارى، وهذا مما أضعف سكان تلك البلاد(١).

وقد نهج عبد الملك بن جهور هذا النهج، حيث لم يسر على سياسة أبيه في المحافظة على أموال الناس، بل تنكب الطريق فاستباح أموال المسلمين وسلط عليهم أهل الفساد، كما أهمل الأمور الشرعية، وأخاف الطريق، فكثر الدعاء عليه(٢)، ومما يدل على تعديه على أموال الناس ما ذكره ابن سهل من أن عبد الملك بن جهور حين تملك قرطبة استولى على مزرعة تعرف بـ (السهلة) من أصحابها، وأن هؤلاء رفعوا دعوى ضده بعد نهاية حكم الجهاورة فردت إليهم تلك المزرعة(٣).

ومما يذكر في هذا الشأن تسلط المعتضد بالله ابن عباد صاحب إشبيلية حيث ذكر المراكشي أنه تسلط على كثير من رعيته، حتى أمات بعضهم خمولاً وفقراً(٤)، كما ذكر أنه كان لا يتورع عن أموال الناس بل يضم ويستولي على ما يعجبه، ومما يذكر في هذا أنه وضع يده على بعض مال لرجل أعمى، فافتقر ذلك الرجل، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها، فلما بلغ المعتضد الخبر أرسل إليه من قتله في مكة. كما استولى على ضيعة لرجل يعمل مؤذناً بإشبيلية ففر منه إلى طليطلة فكان يدعو عليه بها في الأسحار، فلما علم بذلك

= الصالح، حيث دعا عليه قبل قتله فرماه الله بعِلَّة في جسده أذهبت حسه وعقله، فما مات سنة ٤٧٤ هـ حتى كان ينبح كما تنبح الكلاب، نعوذ بالله من سوء العاقبة. (ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٩).

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٢.

(٤) ابن سهل: الأحكام الكبرى (مخطوط) ورقة ١٥٠.

المعتضد بعث إليه من قتله وجاءه برأسه.

ومن العوامل التي أضرت بالحياة الاقتصادية في عصر ملوك الطوائف ما خلفته الحروب التي وقعت بينهم من آثار سيئة، فحينما انتهت الحرب التي وقعت بين المعتضد ابن عباد والمظفر ابن الأفطس سنة ٤٤٢ هـ، واستمرت عدة شهور؛ كانت تلك الحرب قد دمرت عمارات واسعة، أفسدت غلاتها وأوقعت رعيتها في المجاعة الطويلة؛ إذ امتدت الحرب بين ذينك الزعيمين حتىٰ أفنيا العالمين، كما يقول ابن عذارىٰ[١].

وقد كانت دولة البكريين في أونبة وشلطيش ذات اقتصاد قوي، حيث كانت أيامها أعياداً من رخاء السعر وأمن السبل إلىٰ أن ضايقهم المعتمد ابن عباد بشنّ الغارات ففسدت البلاد، وكثر الفساد، وذلك سنة ٤٤٣هـ[٢]. كذلك ما فعله المعتضد ابن عباد مع دولة بني مُزين حيث شنّ عليهم الغارات ووالىٰ السرايا ثم حاصر مدينة شلب فاشتد عليها البلاء مع غيرها من الأقاليم المجاورة[٣]، وقد لقيت هذا المصير كلاً من دولة اليحصبين في لبلة[٤] ودولة عماد الدولة الدمري بمورور[٥].

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد ذكر ابن بسام عاملاً مهماً من العوامل التي أفسدت الحياة الاقتصادية في ذلك العصر؛ حيث قال: «أكثر ملوك هذا الإقليم - يعني ملوك الطوائف - كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكثر كل واحد

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٠.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٩٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٨.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٩٦.

منهم عسكراً بجملة من المال، يخرجه إلى بلد كاشحه، ويسلطه على معانده ممن يجاوره من البلاد حسداً له، وطمعاً في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة؛ لأن جملة غلاتهم، وجميع اعتمالاتهم، كانت تتلف بأيدي تلك الطواغيت الخارجة إليهم في أكثر المواقيت، وما كان يفلت من الخراب يغرمونه في المغارم»[(١)]، ويؤكد هذا ما ذكره صاحب كتاب الحلل الموشية من أن المعتمد ابن عباد قد فرض على أهل بلاده إتاوة كان يؤديها إلى النصارى فافتقر أكثرهم بسببها، كما جلا بعضهم عن تلك البلاد[(٢)].

وكانت عمليات السلب والنهب التي تلي الحروب ويقوم بها بعض عامة الناس من العوامل القوية التي أدت إلى إضعاف الاقتصاد في ذلك العصر، ومن الأمثلة على ذلك أنه حينما اقتحم جيش بني عباد مدينة قرطبة سارع العامة إلى دار عبد الملك بن جهور المحصور، فغشيها جموع من الناس من أعلاها وأسفلها كالجراد المنتشر ينهبون ويسلبون، «فصيّروا جميع ما احتوى عليه قصره كحريق سريع، وفضوا أقاصي مخازنه على نفيس أغلاقها»[(٣)].

ومن التصرفات التي أضرت بالحياة الاقتصادية في عصر ملوك الطوائف تصرفات بعض الوزراء الذين كانوا يلهثون وراء جمع المال بأي وسيلة، ويمثل هذه الفئة بوضوح الوزير ابن السقاء الذي بالغ في هذا الأمر؛ إذ اتبع في جمع الأموال من الناس سياسة حمقاء، ومنهجاً صعباً، وقد وصف ابن حيان تلك السياسة بقوله: «وما هو إلا أن حمل الأمانة - يعني تولي الوزارة - على كاهله، فوضعها أسفل رجله... فتحول جُرَذاً للسرقة والخيانة... وقد تولى أمر

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ٢، ص ٢٥٤.
(٢) الحلل الموشية، ص ٤١.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٦٠.

السلطان وهو فقير فلم يستتر في الاكتساب، بل جاهر في التحامل على الجيرة، والإكراه للمستضعفين ممن يصاقبه من ذوي خطة أو بهجة، وبسط يده إلى مال الخراج، واحتوى عليه، يأخذه كيف شاء [١]، وينفقه فيما يريد، وما هو إلا أن حمل الأمانة على كاهله، فوضعها أسفل رجله، وتذكر عض الكلاب لعصاه فتحول جُرذاً للسرقة والخيانة، وابتنى القصور المنيعة، واقتنى الضياع المغلة إلى أملاك لا تحصى كثرة»[٢].

ويبدو أن ابن السقاء كان مطلق اليد في أموال الناس، وأنه يأخذ ما يريد بلا رقيب، ودون محاسبة، أو مساءلة؛ ولهذا عرضت تركته بعد وفاته على القضاء في قرطبة - كما يذكر ابن سهل في نوازله - فأفتى عدد من الفقهاء، وهم: ابن عتاب، وأحمد بن محمد، وموسى بن هذيل، وعبيد الله بن مالك، بأن جميع ما تركه الهالكان إبراهيم - يعني ابن السقاء - ومحمد (أخو ابن السقاء) للمسلمين إلا ما صح ملكه لهما بوجوبه لهما، وإنه لا تنفذ وصاياهما إلا فيما علم مما صح ملكه لهما، وقد نفذ هذا الحكم[٣].

ولم يكن هذا السلوك خاصاً بابن السقاء فقد شاركه فيه الكثير من رجالات تلك الدول، وممن اشتهر بهذا أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسي، أحد رجالات عمر بن المظفر بن الأفطس، حيث وصفه ابن بسام بأنه «أحد عفاريت الضلال، وآكلة الأموال، من أجرأ خلق الله على دم، وهو أجبن من صافر، وأجسرهم على ركوب ثبيج محرم»[٤].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٢٨ - ٣٤٣. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص ٢٢٣.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٢٩. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٨ - ١٥٩.

كانت هذه صوراً وأمثلة لتصرفات الوزراء في الاستيلاء على المال العام وأموال الناس، ولا شك أن هذا المنهج كان من العوامل الرئيسة التي أدت إلى انهيار الاقتصاد في ذلك العصر؛ حيث أدى إلى قطع أموال الناس جملة كما يقول ابن حيان[١].

ويقابل هذا الحرص من ملوك الطوائف على المال وجمعه أنهم كانوا يحيطون أموالهم بالبخل الشديد؛ فإسماعيل بن ذي النون على الرغم من كثرة جبايته وشدة جمعه للمال فقد كان بخيلاً به، شديد الإمساك له، مقتراً في الإنفاق حيث لم يبادر إلى عمل طيب في هذا الميدان، كما لم يَجُد بمعروف، ولا أعملت إليه مطية، ولا حملت أحداً نحوه ناقة، ولا استخرج من يده درهم من حق ولا باطل كما يقول ابن بسام[٢]. وعلى هذا المنهج كان أبو الحزم ابن جهور، فعلى الرغم من كثرة ماله فقد وُصف بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد فيه عائبه مطعناً، ولكمل لو أن البشر يكملون[٣].

وقد كان هذا التعدي على أموال الناس من قِبَل كثير من ملوك الطوائف ورجالاتهم سبباً في ازدراء النصارى لهم؛ حيث وصفهم ألفونسو السادس بأنهم جماعة من اللصوص[٤]، فقد خاطب ابن عمار قائلاً: «يا ابن عمار، مثلك مثل السارق سرق السرقة فضيعها حتى سُرقت منه»، وقد قال هذه المقولة حينما لجأ إليه ابن عمار ضد خصمه ابن رشيق الذي بادر بالهدايا الجزلة للملك النصراني مما أسقطهم جميعاً من نظره[٥].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٤٣. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٧.
(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٤٦.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن تلك المعاناة الاقتصادية قد تجر الناس إلى الفتن والثورات، ويبدو هذا واضحاً في موقف أهل طليطلة من القادر ابن ذي النون حيث قاموا ضده بثورة عارمة سنة ٤٧٢ هـ، وذلك حينما بالغ في فرض الضرائب عليهم، وقد أدت تلك الثورة إلى هروبه من طليطلة حيث لجأ إلى حصن وبذة[١].

وقد كانت تلك المعاناة في أيام السلم، أما في الحرب وحصار المدن والثغور من قبل النصارى فإنه يعظم البلاء، ويتضاعف الغلاء، ويستوي في عدم القوت الفقراء مع الأغنياء[٢].

لم يكن تأثير تلك المعاناة على العامة فحسب بل إنها تجاوزتهم إلى المفكرين والعلماء، حيث ذكرها بعضهم بعبارة توحي بشدة معاناتهم وعمق تأثرهم بذلك الواقع الاقتصادي المتردّي، يقول ابن بسام: «وكان من غريب ما اتفق، وعجيب ما انتظم من ذلك واتسق؛ أن البُرّ كان على زعمهم يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة لا يؤثر فيه طول القِدم، ولا يُخاف عليه آفة العدم، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر على تعذر بذره، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره إلا وقد بدا البلى عليه، وأسرعت الآفة إليه، أمر من الله لم يكن له مرد، ولا منه بد»[٣].

كان هذا عرضاً سريعاً للوضع الاقتصادي في عصر ملوك الطوائف، حيث تبيّن لنا من خلاله أن ذلك الاقتصاد كان هشاً بل ضعيفاً متداعياً، وكما كان لهذا الضعف أسبابه فقد كانت له نتائجه المباشرة، ولعل من أهمها - وهو ما يعنينا في هذا البحث - أن قلة المال في أيدي الناس - والذي هو عصب المعارك كما يقال - قد

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧ - ١٥٨.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٨.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص١٦٤.

أدىٰ إلىٰ ضعف الناس مما أضعف حصونهم وثغورهم، ويبدو أن النصارىٰ كانوا يخططون لهذا الأمر، وقد بدا هذا واضحاً في سياسة ألفونسو السادس مع ابن ذي النون فقد «قفر ثغوره... فجعل لوقته يطويها طي السجل للكتاب، وينهض فيها نهضة الشيب في الشباب، وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده، ويرجمه بسيده ولبده، وألفونش - لعنه الله - لا يقنع منه بصيد العنقاء، ولا ببيض الأنوق، بل يكلفه إحضار الأبلق العقوق، ويسومه درك الشمس، ويطلبه برد أمس، فلما أكل الإنفاق ثبج ماله، وأخذ الخناق بكظم احتياله، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله، سما إلىٰ معاقله المنيعة، وذرىٰ أملاكه الرفيعة، عُدد الأنام ودروب الإسلام»(١).

وقد يكون من الإنصاف في نهاية هذا المبحث أن نبين أن ذلك الضعف الاقتصادي لم يكن شاملاً لكل دول الطوائف، بل يستثنىٰ من ذلك دولة بني جهور في بداية أمرها، فقد كانت تملك اقتصاداً قوياً في عهد أبي الحزم ابن جهور (٤٢٢ - ٤٣٥ هـ)، وذلك بسبب ما أوجده من خطط اقتصادية فريدة كان من أهمها ورعه عن المال العام، وتأمين الأمن والطمأنينة للناس(٢)، حيث يذكر المؤرخون أن أبا الحزم ابن جهور قد نهج سياسة مالية جيدة؛ إذ لم يطمع إلىٰ ما في أيدي الناس أو بيت مالهم، بل كان يقتات من ماله الخاص، كما كان لا يلتبس بشيء من مال المسلمين، ولا يدخل داره، ومتىٰ سُئل؛ قال: ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم(٣).

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٦.
(٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٧-٢٨، المراكشي، المعجب، ص ١١١-١١٢، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٠-٣١.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.

أما ما يصل إليه من أموال المسلمين، فقد كان يجعل كل ما يرتفع إليه في البلد من مال - بعد إعطاء المقاتلين نصيبهم - بأيدي ثقات، مشاركاً لهم في إدارته وتصرفه(١).

وقد ذكر ابن حيان أن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة التي اتبعها أبو الحزم ابن جهور كان لها أثر واضح على مسلمي قرطبة حيث «رخت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزايد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها حتى ملؤوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي أخذ بالهوينا، فاتصل البنيان بها، وغلت الدور، وحركوا الأسواق»(٢).

وقد أدت هذه النقلة الاقتصادية التي وجدت بقرطبة خلال حكم أبي الحزم ابن جهور إلى تعجب الناس من ذلك التغير الذي طرأ على قرطبة دون سواها من مدن الأندلس؛ حيث إن معاول الهدم ما زالت موجودة في ذلك المجتمع، وقد وصف ابن حيان ذلك الموقف الذي بدا من الناس فقال: «فعجب ذو التحصيل للذي أدى إليه في صلاح أحوال الناس من القوة، ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله - تعالى - بين الكاف والنون»(٣).

أما الحالة الأمنية: في عصر ملوك الطوائف فلم تكن أحسن من سابقتها فقد تردت الأوضاع الأمنية هناك، بل كانت بالغة السوء، ولعل تسمية هذا العصر (أيام الفَرَق)(٤) أوضح دليل على ذلك، فالفَرَق يعني الخوف، ولهول ما وقع فيه

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٤. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) المصدر السابق، ص ٦٠٤. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.

من الفتن التي تدع الحليم حيران، فالعدو وخطره يهددهم جميعاً، والحكام مشغولون بمصالحهم وبتآمر بعضهم على بعض[١]؛ إذ لم يستشعروا المسؤولية بل إنهم أضحوا كما أمسوا أمراء فرقة همل يعيشون ما بين فشل ووكل[٢].

وفي خضم تلك الفتنة ومع غياب الوازعَيْن الديني والسلطاني عن أفراد ذلك المجتمع عمَّت الفوضى، وافتقد النظام، وثارت الأحقاد بين عناصر المجتمع الواحد، كما ظهرت نزعة الانتقام والتشفي، وكان يكفي أن يقال هذا من الجنس الفلاني فتمزقه السيوف، ومن ثم تحتضنه اللحود[٣].

وقد بدا هذا الأمر واضحاً في مستهل ذلك العصر، فقد استغل الكثير من أهل الأهواء الفتنة البربرية التي اجتاحت الأندلس آنذاك، فحققوا من خلالها الكثير على حساب النظام والأمن والمصلحة العامة؛ إذ لم يبق أحد من هؤلاء إلا عمل مجهوده في ذلك، فقتل الكثير من الرجال الذين كانت لهم مساهمات كبيرة في ميدان الجهاد، بل إن بعضهم ذبحوا على فُرشهم، كما سُبيت النساء، وهُتكت الأعراض[٤]، وهكذا انعدم الأمن، وسيطرت الفوضى فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ففي الأسواق أصبحوا يخافون حتى حينما يصهل فرس على فرس[٥]، كما أخذ الناس في قرطبة يستفتون في جواز تقديم صلاة العشاء مع المغرب؛ وذلك بسبب الخوف حينما يحل الظلام[٦]، كما صلى أهل قرطبة العيد في إحدى السنوات بالجامع بدلاً من

(١) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦١.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٣) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦٦.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٨١.
(٥) المصدر السابق، ص ٩٢، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ١٧٨.
(٦) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج ٣، ص ٦٧.

المصلى؛ وذلك بسبب خوفهم(١).

وفي ظل تلك الفوضى أصبح حثالة الناس ربما يعزلون ويولون حسب ما تمليه مصالحهم الذاتية، ففي قرطبة يذكر ابن عذارى أنه في أيام الفتنة قام بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنّافين وزبالين، أصبحوا يقومون بمسؤوليات أهل الحل والعقد إلى جانب السطو والنهب في قرطبة والزهراء، دون أن يلقوا أي معارض(٢).

ولم تكن تلك الأعمال سببها انعدام الوازعَيْن الديني والسلطاني فحسب، بل ربما ساعدت بعض تلك الكيانات على هذا الأمر، ومما يذكر في هذا المجال أن علي ابن حمود حينما تولى السلطة «صبَّ على أهل قرطبة ضروباً من المغارم، وانتزع السلاح منهم، وقبض دورهم، وقبض أيدي الحكام من إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم، ففتحوا لهم أبواباً من البلايا أهلكوا بها الأمة، وتقربوا إليه بالسعاية فيهم، وصار شطر الناس أشراطاً على سائرهم... وأخذت على الناس الأقطار، وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم، فلزموا البيوت، وانطمروا في بطون الأرض؛ حتى قل بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء، وكف الطلب عنهم انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم»(٣).

كما ذكر ابن حزم أن قرطبة في ذلك الوقت «عاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش»(٤)، ويضيف إبراهيم بن القاسم أنه خلال الفتنة البربرية كان يقتل كل متشبه بالبربر، وكل عُدْوي(٥)، ولو لم ير العدوة ولا سمع بها

---

(١) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٢٩٨.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٧٤.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٢٣.

(٤) طوق الحمامة، ص ٩٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٠٦.

(٥) العدوي، نسبة إلى العدوة المغربية.

إسرافاً وتحاملاً وجرأة على الله ـ سبحانه ـ وطغياناً؛ حتى إن كل من بينه وبين أحد عداوة قال هذا بربري فيقتل، كما قتلوا الأطفال وشقوا بطون الحوامل، وأخذوا ابنة رجل من البادية وكانت جميلة حسنة، وعرف أبوها العلج الذي أخذها، فوقف إلى أحد الناس، وقال له: إن فلاناً العلج أخذ ابنتي وليست بربرية، فقال له: لا تتكلم في شيء من هذا فما إلى ردّها من سبيل. فحاول والدها ردها حيث بذل أربعمائة دينار للعلج، فلما أخذها منه قتله(١).

وقد أدرك العلماء والفقهاء تردي الحالة الأمنية في مجتمع ملوك الطوائف، ولهذا أخذوا يصدرون الأحكام والفتاوى أحياناً على تقدير أن كل غائب طالت غيبته فهو هالك، وهذا المنهج في الفتوى عند الفقهاء إنما يعمل به في الأوقات المضطربة وغير الآمنة(٢).

ومما يدل على انعدام الأمن وترديه في كل أقطار الأندلس وصف مدينة قرطبة بأنها أصبحت في أيام أبي الحزم ابن جهور «حرماً يأمن فيه كل خائف»(٣).

هكذا كانت حالة أولئك القوم عامتهم وخاصتهم، فالضعف المعنوي قد ضرب بجذوره في أعماق نفوسهم؛ إذ انعدم الوازع الديني بينهم لما لم يعد للوازع السلطاني أي قدر، فانقطعت السبل، وكثر القتل والهرج، والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية، كما يقول ابن عذارى(٤)، وقد تأصل هذا الأمر في نفوس بعض ملوكهم ومن هؤلاء المعتضد ابن عباد الذي وصفه ابن حيان بأنه: شهاب الفتنة، ذو الأنباء الشنيعة، والوقائع المبيرة، والسطوة الأبية،

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٩٧.
(٢) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص ٢٠٠.
(٣) المراكشي، المعجب، ص ٩٢.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١١.

كما يذكر أن نفسه - يعني المعتضد - كانت ترتاح حينما ترىٰ الحديقة التي ملأها برؤوس أعدائه، بينما الخلق يذعرون من مجرد التماحها لهول ما فيها، ولأنها شاهد حي علىٰ ظلمه وسطوته(١)، وقد نهج هذا المسلك عبد الملك بن جهور الذي أضاع الأمن واعتدىٰ علىٰ أموال الناس، كما يذكر ابن عذارىٰ أن «هذا السفيه القوي قد تعاظم وتعاطىٰ حتىٰ سمَّىٰ نفسه ذا السيادتين، المنصور بالله، الظافر بفضل الله»(٢).

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد ذكر ابن حزم أن من عوامل تداعي الأمن أن جنود الفتنة كانوا لا يتورعون عن شن الغارات علىٰ الناس الآمنين، والاستيلاء علىٰ أموالهم بالقوة، وقطع الطريق علىٰ مصالحهم، وضرب المكوس والجزية علىٰ رقابهم، بل وتسليط اليهود لأخذ الجزية منهم(٣).

وقد أدرك بعض ملوك الطوائف أن ما حل بالأمة في عصرهم إنما كان بسبب سياستهم الخرقاء الظالمة، وقد اعترف أبو الوليد ابن جهور حينما أخرج من قرطبة قاعدة مملكته، ونفي إلىٰ جزيرة شلطيش، بأن ما حلّ به، إنما كان بسبب جوره، وظلمه، فقال كلمته المشهورة حينما وصل إلىٰ وسط القنطرة الموصلة إلىٰ تلك الجزيرة بعد أن رفع يديه إلىٰ السماء: «اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا»(٤)، كما بدا هذا واضحاً في الرسالتين اللتين بعث بهما كل من المتوكل ابن الأفطس - حاكم بطليوس -، والمعتمد ابن عباد - حاكم إشبيلية - إلىٰ ألفونسو السادس ملك قشتالة(٥).

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٥-٢٠٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣.
(٣) رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ص ١٧٣-١٧٤.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٨.
(٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٦-٤١.

وبهذا يظهر لنا تردي الحالة الأمنية في عصر ملوك الطوائف، وأنه كان عصراً مضطرباً لا يأمن الناس فيه على أنفسهم، ولا أعراضهم ولا أموالهم، وأن الذي أسهم في صنع ذلك الوضع غياب الهاجسَيْن الديني والسلطاني عند عامة الناس، وكذلك عدم اكتراث زعماء الأندلس آنذاك بهذا الأمر، بل إنهم ربما ساعدوا على إضعافه بما يخلقونه من فتن، وحروب، وأزمات اقتصادية ساعدت أحياناً على تردي الحالة الأمنية أو انتكاسها.

أما القلق النفسي: أو ما يمكن أن نسميه بالنكسة النفسية عند مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فقد بدت هذه الظاهرة واضحة، ليس عند العامة فحسب، بل تجاوزتهم إلى المفكرين والعلماء وغيرهم، فقد تضافرت تلك الفتن السياسية، والأزمات الاقتصادية والأمنية والحربية، فتمخض عنها أجواء نفسية مضطربة أصبح فيها الحليم حيران؛ إذ اختل التصور السليم للأمور، فلم يعد هناك معايير ولا أعراف، فضلاً عن القيم والأخلاق، بل إنها كلها قد غابت عن ذلك المجتمع حيث أصبح «الأدب أقل من الوفاء، حامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهاله، حسب المرء أن يسلم وفره، وإن ثُلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه»(١).

هكذا لم يعد هناك ضابط شرعي أو نظامي أو عرفي لكثير من القضايا والأزمات التي حلَّت بذلك المجتمع، فقد هانت كثير من مصالح الأمة، وتركت دون المصالح الذاتية، فأصاب الأمة من الضياع والحيرة والقلق، بقدر ما حادت عن الخط الإسلامي الصحيح(٢)، ويدرك المتتبع لتاريخ أولئك القوم أنهم قد ساروا بعيداً في هذا الميدان حتى ظن بعضهم أن ما هم فيه من فوضى ـ شملت

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٠.
(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٥.

شؤون حياتهم كلها، وخلفت آثاراً كثيرة كان من بينها ذلك القلق النفسي - هو واقع لا يصلحه إلا نبـي؛ لتأصله في النفوس، وشدة أوجاعه، وهمومه بين الناس[١]، فقد جلحت الأباليس، وصارت الدور كالتنانير كما يقول ابن عبد البر[٢].

كما يدرك المتتبع لما خلفه علماء ذلك العصر من تراث فكري أن رصدهم لتلك الظاهرة كان قوياً، كما أن معاناتهم منها كانت موجعة، فمن يقرأ في مقدمة ابن بسام لذخيرته يدرك هذا واضحاً عند قوله: «وعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء... وحين اشتد الهول هنالك اقتحمت بمن معي الممالك على مهامة تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحن:

مهامة لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه»[٣]

كما ظهرت تلك المعاناة واضحة في كتابات ابن حيان حيث وصف بعض سني العصر بقوله إنها كانت «شداداً نكدات، صعاباً شؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء العصبية، وظعن الأمن، وحلول المخافة... فتمخضت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها، إلى ما كان أعضل، وأدهى مما طوى بساط الدنيا، وعض رسمها، وأهلك أهلها»[٤].

---

(١) ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، ص ٦٠.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٣٧.
(٣) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٩.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٦. (نقلاً عن ابن حيان).

أما ابن حزم فإن ذلك الوضع الذي يعيشه الناس ظل هاجساً ملازماً له، يقلقه أينما حل وارتحل، كما عده من المصائب الكبرىٰ التي رُزئ بها المسلمون؛ ولهذا فقد لجأ إليه الناس ينشدونه الطرق الموصلة للخلاص من ذلك المأزق الذي هم فيه، وقد أجابهم بقوله: «وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها. . . فهذا أمر امتحنا به - نسأل الله السلامة - وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقىٰ الله تعالىٰ، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب»[١].

وقد صور تلك المعاناة النفسية الشاعر الأديب أبو الحسين يوسف بن محمد ابن الجدّ، وفي رسالة بعثها إلىٰ عمه من جزيرة ميورقة، ومما جاء فيها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر — فزعت فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا — شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وإن عيناً لم تصب بدم بعد دم لبخيلة، وإن نفساً لم تذب علىٰ تلك النازلة العظمىٰ لجلدة خمولة، لله - تعالىٰ - التسليم فيما حلّ وجلّ، وفجع وأوجع، وإن لم تكن تجافت عن النفوس، ورتعت في العرض الخسيس، فخطبها حقير، وكسرها مجبور، علىٰ أنها كيف تصرفت مشكلة، وعلىٰ ما تخيلت مذهلة، وصفاتك - أعزك الله - أصلب من أن تؤثر فيها النوازل، وأثبت من أن تضعضع فيها الرواجف والزلازل، وأنا حين خططت هذه الأحرف علىٰ جمر من الأسىٰ متقلب:

كتبتُ وقد غالت عزائي أشجان — وقد شرّقت بالدمع والدم أجفانُ
وقد وقذتني نبأة الخطب لم تصغْ — إلى مثلها في سالف الدهر آذانُ
تصاممتُ عنها مستريحاً إلى المنى — وقلت عساها في الأحاديث بهتانُ
كذا فارقبوا يوم القيامة بغتة — فيهلك شيطان ويهتك سلطانُ»[٢]

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٣، ص ١٧٦ .
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ٢، ص ٥٥٨ - ٥٦٠ .

هكذا كانت المعاناة النفسية لمسلمي الأندلس كما يصورها ذلك الأديب الذي عاش في ظلها واكتوىٰ بنارها، ومما يدل علىٰ شدة المعاناة والنكسة النفسية التي عاشها المسلمون آنذاك، ما ذكره ابن حزم من أن الأحزان والمآتم، وتكدر الخواطر الذي كان من سمات ذلك العصر شغلت النساء حتىٰ عن الاهتمام بزيها وزينتها، وهذه من الأمور المعمول بها يومياً عند المرأة، بل إنها من المحببات إلىٰ نفوسهن، وفي هذا يقول واصفاً بعض قريباته بعد أن رآها بعد عودته إلىٰ قرطبة: «فنزلت علىٰ بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتىٰ قيل لي هذه فلانة، وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرىٰ كالسيف الصقيل، والمرآة الهندية... فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة»(١).

وفي ظل تلك الظروف النفسية والاجتماعية المضطربة التي عاشها مسلمو الأندلس آنذاك بدأ يظهر في الساحة الأندلسية بعض الظواهر النفسية والاجتماعية التي أفرزها ذلك الضعف، ولعل من أهمها: ظهور بعض الشائعات التي تمخضت عن تلك النكسة النفسية، حيث أصبح مسلمو الأندلس يرددون أنه «في عهد لذريق فتحت هذه الجزيرة، ولذريق يستنقذها» يعنون ألفونسو السادس، كلمة ملأت الصدور، وخيلت وقوع المخوف والمحذور، كما يقول ابن بسام(٢)، ويبدو أن ظهور مثل هذه الإشاعة هو الذي جعل أبا الحزم ابن جهور يطرد عدداً من الوشاة الذين يسعون بالنميمة وإثارة البلبلة في المجتمع القرطبي؛ وذلك لكي يقضي علىٰ الإشاعة المغرضة، والحرب النفسية التي

---

(١) طوق الحمامة، ص ١١٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٩٩.

يبثها المغرضون[١].

ومن الظواهر الاجتماعية التي بدت واضحة: الهجرة عن كثير من المدن الأندلسية التي أصبحت مناطق طرد لسكانها بسبب ما استعر فيها من حروب، وقام فيها من فتن، فهاجر كثير من السكان عن مدنهم إلىٰ بلاد العدوة المغربية أو أماكن أخرىٰ، وكان ممن اكتوىٰ بهذه النار الأديب الشاعر أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦ هـ)، فحينما رأىٰ ما حل بقرطبة من فساد، وخراب وتدمير اضطر كثير من أهلها إلىٰ الهجرة عنها، وصف تلك الظاهرة وما أدت إليه من فراق الأهل والأحبة بقوله:

ما في الطلول من الأحبة مُخبر ... فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراق فإنه ... يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جَارَ الزمان عليهم فتفرّقوا ... في كل ناحية وباد الأكثرُ
جرتِ الخطوبُ على محلٍّ ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعينٍ دمعُها يتفجرُ

إلىٰ قوله:

حزني على سرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكررُ
نفسي على آلائها وصفاتها ... وبهائها وسنائها تتحسرُ
كبدي على علمائها، حكمائها ... أدبائها، ظرفائها تتفطرُ[٢]

كان هذا عرضاً للوضع النفسي المتمخض عن الضعف المعنوي الذي انتاب مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، ولعل من المناسب أن نبين أن ذلك الضعف لم تكن نتائجه وإفرازاته شراً محضاً، بل إن الأمة لم تعدم بعض النتائج

(١) صالح السنيدي، دولة بني جهور في قرطبة، ص ١٤١.
(٢) الطاهر أحمد، دراسات أندلسية، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

الإيجابية التي تمخضت عن ذلك الوضع الذي أقلق بعض قادة الفكر بالأندلس، كما أقض مضاجعهم تخلي كثير من ملوك الطوائف عن مسؤولياتهم إزاء الأمة؛ ولهذا حاول أولئك المفكرون أن ينبروا لمعالجة ذلك الواقع لإصلاح الحال؛ كي يعيدوا الأمة إلى سابق مجدها وعزها.

وقد نهجوا في ذلك أساليب متباينة كل حسب إمكاناته وقدراته، والفرص المتاحة له؛ فمنهم من خاطب الحكام موضحاً لهم حقيقة واقعهم، وحاجتهم إلى الوحدة الإسلامية، وإحياء روح الجهاد بين المسلمين لكي يقفوا سداً منيعاً أمام النصارى، ومنهم من استخدم الخطب، والتأليف، والفتاوى، والرسائل، والنقد البناء؛ لتكون وسائل لدعوته لإصلاح الواقع، كما طاف بعضهم على بلدان المسلمين بالأندلس لإصلاح ذات البين، والدعوة إلى الوحدة بين ملوك الطوائف، وإزالة ما بينهم من وحشة أو فجوة.

ولم تكن هذه الجهود، وتلك المحاولات قاصرة على الحكام فقط، بل تجاوزتهم إلى كل شرائح المجتمع؛ حيث بين لهم بعض العلماء والمفكرين أسباب الضعف وعوامله، كما دلوهم على أسباب العزة والقوة، وكيفية معالجة واقعهم المرير؛ إذ بينوا لهم أن ما حل بهم من ضعف وهوان على الناس، إنما كان بسبب بعدهم عن منهج ربهم، وتخليهم عن أصالتهم التي دخلوا بها تلك الديار، بل اقتحموا بها الدنيا بأسرها[١].

وقد كان من نتائج هذه الجهود إحياء روح الجهاد عند بعض مسلمي الأندلس، فقد رأينا كيف تحرك بعض المسلمين لتحرير بربشتر حينما سقطت بيد النصارى سنة (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)؛ وذلك حينما نهض بعض العلماء

(١) للمؤلف بحث غير منشور حول جهود العلماء في ذلك، بعنوان: «جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف».

والمفكرين من أمثال ابن عبد البر، فبينوا للناس أسباب ما هم فيه من ضعف(١)، كذلك يعد موقف القاضي ابن جحاف من المواقف المشهورة في هذا الميدان، فقد تصدى للقوى النصرانية، كما حاول استنهاض همم المسلمين ودعوتهم إلى إصلاح الحال(٢).

وكان من النماذج الطيبة لهذه الجهود دعوة المرابطين إلى دخول الأندلس بعد أن يئس الناس من قدرة أولئك الزعماء على إصلاح حالهم فضلاً عن إصلاح الناس والواقع، فحينما قتل المعتضد ابن عباد أبا حفص الهوزني حينما دعاه إلى الجهاد، محاولاً بذلك إسكات أي صوت يدعو إلى الإصلاح، غضب ابنه أبو القاسم الهوزني لذلك التصرف المشين، فدعا المرابطين إلى دخول الأندلس لإصلاح الحال، وذلك سنة ٤٦٠ هـ(٣)، وفي سنة ٤٧٤ هـ كرر هذه الدعوة أبو الوليد الباجي - حامل لواء الدعوة إلى التوحيد - الذي توفي بالمرية سنة ٤٧٤ هـ وهو يروم جمع كلمة ملوك الطوائف مع المرابطين لكنه توفي قبل تمام غرضه كما يقول القاضي عياض(٤)، وبعد ذلك توالت الوفود الأندلسية على المرابطين حيث وعدهم السلطان يوسف بن تاشفين بإمدادهم وإعانتهم(٥).

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٧٨ - ١٧٩، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٧.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥، ج ٤، ص ٣٩، شكيب أرسلان، الحلل السندسية، ج٣، ص ٦٥، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٤.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٤.
(٤) ترتيب المدارك، ج ٣ - ٤، ص ٨٠٨.
(٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٣.